علاقات إقليم توات بحواضر السودان الغربي:
العلاقات الثقافية وأبعادها الحضارية نموذجا

د. مقلاتي عبد الله
قسم التاريخ ـ الجامعة الإفريقية- أدرار

تمهـــيد :

شهد إقليم توات خلال مرحلة ازدهاره انفتاحا على أقاليم السودان الغربي، حيث يشيد كثير من المؤرخين بدوره الحضاري والاقتصادي الذي أسهم في إنضاج حركة علمية زاخرة، وكان من مظاهرها انتشار المراكز العلمية وانتقال العلماء إلى بلاد السودان الغربي للدعوة في سبيل الله ونشر العلم، وقد مارس هؤلاء العلماء التعليم والدعوة، ورابطوا وجاهدوا من اجل نشر الإسلام والثقافة العربية، وتحفل اليوم كتب التراجم بسجل انجازاتهم العلمية والحضارية الزاخرة، وفي مداخلتنا هذه تحاول التعرف على جانب مهم من علاقات الإقليم الخارجية، وهي العلاقات الثقافية والحضارية مع بلاد السودان الغربي خلال الفترة من القرن الخامس عشر الميلادي إلى القرن التاسع عشر الميلادي، ونركز أساسا على دور علماء توات في نشر الإسلام والثقافة العربية، والأهمية الحضارية لهجرة التواتيين جماعات وأفراد واستقرارهم في بلاد السودان الغربي.

أولا : علاقات إقليم توات بالسودان الغربي.

يمثل إقليم توات (قورارة، توات، تيديكلت) العمق الاستراتيجي للجزائر في إفريقيا، حيث تربط الصحراء ـ كما يربط البحر المتوسط الجزائر بأوربا ـ الجزائر بدول جنوب الصحراء والسودان الغربي، وبحكم هذا الموقع والازدهار الحضاري والاقتصادي الذي عرفه الإقليم أسهم الإقليم بدور هام في نشر الإسلام وإيصاله إلى أدغال إفريقيا، ونشر الثقافة العربية وإقامة علاقات وطيدة مع دول وشعوب غرب إفريقيا .

وقد جلبت إليها توات خلال القرن الخامس عشر أنضار العالم، وذلك باعتبارها طريقا رئيسيا لقوافل التجارة، وقطبا اقتصاديا، ومركزا حضاريا وعلميا(1)، حيث بلغت أوج ازدهارها الحضاري خلال القرن السادس عشر الميلادي، فقصدها الطلاب والعلماء من كل فج، والتفتت إليها ممالك الإسلام الإفريقية تسترشد بعلمائها وتأخذ من معارفها وحضارتها، وقد اشتهرت بلاد السودان الغربي بخيراتها الكثيرة والمتنوعة، وبمعادنها النفيسة كالذهب والعاج...الخ، كما راجت بها تجارة الرقيق، فذكر ليون الإفريقي بأن مملكة برنو وهي إحدى الممالك السودانية كانت تجارتها مع مغاربة شمال إفريقيا تقوم في أغلبها على الرقيق، وذلك على الرغم من توفر الذهب لديها بكثرة، إذ كان أهلها يصرون على مقايضة الخيل بالرقيق لأعداده الوافرة لديهم، حتى أنهم كانوا يقدمون مقابل حصان واحد خمسة عشرة من العبيد .(2)

ونظرا لأهمية بلاد السودان وكثرة خيراتها انتقلت إليها كثيرا من القبائل للاستقرار والعمل، وقد قصدها التجار من جميع جهات العالم، وخصوصا من شمال إفريقيا ومن أوروبا الغربية، يحملون إليها المنسوجات والشموع والمصنوعات المختلفة ويأخذون مقابلها الرقيق والذهب.

وقد خضعت بلاد السودان قديما لحكم أسرة لمثة مدة ثمانية قرون، وقامت في أرضها ممالك عدة كمملكة غانة ومالي وبرنو وكانو، وانتهى حكمها لأحد زنوج السوتنكي حمل لقب أسكيا، ويدعى محمد توري وهو مؤسس مملكة سنغاي، وآل أسكيا أصلهم من صنهاجة، حيث قال الإمام التكروري في

---

[1] Martin (A .G. P) :les oasis sahariennes , Alger . 1908 , p 115

[2] انظر حسن الوزان :وصف افريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر ، دار الغرب الاسلامي, بيروت 1983 ، ج 2، ص 134

كتابه "نصيحة أهل السودان" : " إن أهل سكية أصلهم من صنهاجة وملكوا كثيرا من بلاد السودان, وأول ملوكها الحاج محمد سكية "(3)

وقد طال حكم الأسكيين أكثر من قرن (1493 - 1598)، أداروا خلالها البلاد بتنظيم محكم، ووسعوا حدودها ومنشآتها، وربطوا علاقاتهم مع الدول الإسلامية المجاورة خصوصا دول شمال إفريقيا وإقليم توات.

وأما عن العلاقات الجزائرية ـ السودانية فهي علاقات قديمة نظرا للتقارب الموجود بين سكان أقصى الجنوب وشعوب السودان الغربي، وللتقارب الجغرافي والاحتكاك المتزايد بفضل انتشار الإسلام واتساع مجال التجارة، وعلى الرغم من البعد الشاسع ووجود الصحراء كحاجز طبيعي إلا أن الاتصال والروابط ضلت قائمة بين الزيانيين وممالك السودان الغربي، وضلت الصحراء تمثل عاملا قويا من عوامل الاتصال السياسي والثقافي والتجاري، فهي بذلك صلة وصل شبيهة بما لعبه البحر المتوسط في الربط بين أوروبا وإفريقيا، وقد ازدادت هذه العلاقات قوة وتماسكا بعد انتشار الإسلام في السودان واستقرار كثير من العائلات والعلماء هناك، وبالتالي ازدادت قوة الاتصالات التي كانت موجودة طوال العصر الوسيط، وقد احتكرت بعض العائلات الجزائرية التجارة مع السودان، ومنها عائلة المقري، حيث يذكر مؤلف كتاب "نفح الطيب" أن أجداده اعتمدوا تجارة الصحراء التي ازدهرت بفضلها تلمسان كواسطة بين السودان وأوربا، " وكان التلمساني يبعث إلى الصحراوي بما يرسم له من السلع، ويبعث إليه الصحراوي بالجلد والعاج والجوزة والتبر، والسجلماسي كلسان الميزان يعرفهما بقدر الخسران والرجحان ويكاتبهما بأحوال التجار وأخبار البلدان..."، وقد تأثرت التجارة بأمن الطريق والانقلابات السياسية التي كانت تعرفها السودان، ومع ذلك فان العائلات الجزائرية تغلبت على هذه المشاكل وربطت علاقات وثيقة مع الحكام والسلاطين الجدد لممالك السودان(4).

وأحدث الجوار الجغرافي بين منطقة توات الجزائرية والممالك السودانية كمالي وسنغاي تقاربا وارتباطا وثيقا بين إقليم توات الجزائري والسودان الغربي في مجالات شتى، إذ كانت القوافل التجارية تسير باستمرار بين توات ومالي وتمبكتو، وكانت المصنوعات الجزائرية من أقمشة وأحذية وأدوات نحاسية تجد رواجها في بلاد السودان في حين تنقل قوافل التجارة الرقيق والذهب للأسواق الجزائرية.

وتتحدث المصادر التاريخية عن الازدهار التجاري الذي عرفته توات خلال القرن الرابع عشر الميلادي، وقد زاد الموقع الجغرافي ومرور طريق التجارة عبر توات في جعل المنطقة مركزا هاما في التجارة مع بلاد السودان، وهو أمر أدى إلى احتراف التواتيين للتجارة الصحراوية التي برعوا فيها، فهذا ابن بطوطة الذي زار المنطقة يشيد بمركز توات التجاري ويذكر أن التواتيين راجت تجارتهم، وأصبح لهم وكلاء في كامل مدن السودان الغربي، وان هناك أحياء خاصة في تمبكتو يسكنها تجار توات ووكلائهم(5)، وتحدث السعدي وكعت وغيرهما عن مراكز وسكنى التواتيين الواقعة على نهر النيجر، وقد تحول خط التجارة خلال القرن السادس عشر من السوس ـ ولاتة إلى الشرق، واحتلت توات المركز الرئيسي في وصل تجارة المغرب العربي بالسودان، ولم تعد تضاهيها أية مدينة صحراوية في المكانة بما في ذلك غدامس وورقلة(6).

ونظرا لأهمية توات التجارية خطط الملوك السعديون لاحتلالها، ووجه المنصور الذهبي جيشا عرمرما قاومه التواتيون ببسالة، وقد سجل المؤرخون بما في ذلك مؤرخو القصر بشاعة المجازر والفظائع التي ارتكبها الجيش المغربي، فذكر عبد العزيز الفشتالي أن الدماء وصلت إلى الركب بعد أن

---

[3] انظر محمد مزين :المغرب وبلاد السودان خلال القرنين 16 و17 الميلاديين، مجلة المؤرخ، يصدرها اتحاد المؤرخين العرب، عدد 16، ص ـ ص 214-215

[4] انظر عمار هلال : المرجع السابق الطرق الصوفية ونشر الاسلام والثقافة العربية في غرب افريقيا السمراء ,ط1, منشورات وزارة الثقافة والسياحة، الجزائر ,1988، صّ 71،72

[5] انظر ابن بطوطة : ابو عبد الله محمد : تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار, دار المعارف,القاهرة ,1966، ص 44

[6] الصديق حاج احمد : التاريخ الثقافي لإقليم توات، ط1، منشورات مديرية الثقافة لولاية أدرار، 2003، ص 40

استحل الجيش مدينة تيميمون(7)، وهكذا أصبحت قبائل توات مجبرة على دفع الضرائب لسلاطين المغرب، مما أثار تذمر السكان ودفعهم لمقاومة الاحتلال المغربي خاصة بعد أن أصبحت الضرائب تؤخذ عنوة.

واثر الازدهار الاقتصادي واستقرار الوضع السياسي إلى انتشار العلوم والثقافة، حيث برع التواتيون في مختلف العلوم الشرعية واللغوية، واسهم علمائهم في نشر الإسلام والثقافة العربية في أصقاع السودان البعيدة، وأشاد كثير من المؤرخين بجهودهم وإسهاماتهم الحضارية، وقد تمكن علماء توات من إرساء حركة ثقافية وعلمية جمعت بين علوم المشرق والمغرب، وارتبطت بثقافات السودان الغربي، وبحكم الجوار الجغرافي والازدهار العلمي ساهم التواتيون في نشر الإسلام بواسطة التجارة والطرق الصوفية, وكذا نشر الثقافة العربية التي صبغت على السودان الغربي طابعا عربيا وإسلاميا(8).

ثانيا : الرحلة العلمية للتواتيين إلى بلاد السودان الغربي

اشتهر علماء توات برحلاتهم العلمية إلى المراكز الحضارية الكبرى في العالم الإسلامي, وذاع صيت الكثير منهم في العواصم الثقافية خاصة في بلاد السودان، وقد ذكر أصحاب التراجم جمهرة من علماء توات ذاع صيتهم في الحواضر الإسلامية(9)، ومنهم الفقهاء والأساتذة في جوامع القرويين والزيتونة والازهر....الخ، والمدرسون ورجال الدعوة في غرب إفريقيا، وكان لعلماء توات حضور قوي في مدينة تمبكتو التي استقطبت إليها رجال العلم والدعاة والتجار منذ القرن الرابع عشر ميلادي.

وكان لعلماء توات دور متميز في نقل الإشعاع الثقافي الإسلامي إلى الشعوب الإفريقية، وفي تشييد صروح التمدن والحضارة، إذ يؤكد أغلب المؤرخين على دورهم الفاعل في نضج وقوة الممالك الإسلامية التي عرفتها إفريقيا الغربية بدءا من القرن الخامس عشر، وفي عهد ازدهار الحضارة الإسلامية انتشرت المدارس والمعاهد الإسلامية بفضل جهود علماء المغرب الإسلامي, وخاصة التواتيين منهم الذين تميزوا عن أقرانهم بحركيتهم النشطة وصبرهم الجلد وتأقلمهم وتعايشهم مع السكان الأصليين (10)، وقد انتظمت الزيارات العلمية لعلماء توات، إذ يذكر المؤرخون أن ملك مملكة برنو كداي (1447-1440) بعث برسالة إلى علماء توات يطلب منهم إرسال بعثات علمية إلى برنو (11).

ومن العلماء الذين نبغو في بلاد برنو واثروا في الحياة الاجتماعية والسياسية نذكر الشيخ محمد الطاهر الفلاني التواتي، الذي ألف عدة كتب في الفقه وعلم الكلام والسياسة، وقد ذكر صاحب " إنفاق الميسور" أن سلطان برنو حمله إلى حصن برنو واسكنه فيه، وبنى له دارا ووالاه خطه (12)، واشتهر في هذه المملكة العالم الشيخ العاقب بن عبد الله الأنصمني السوفي، وكان من علماء تكدة النابهين الذين اشتغلوا بالعلم والتأليف، وقد تعلم على يد الشيخ ابن عبد الكريم المغيلي (13) .

واستقطبت مدينة تمبكتو علماء توات فاستقر الكثير منهم فيها للدعوة والتدريس، ويذكر مؤرخ السودان عبد الرحمان السعدي أنه حضي باحترام الجميع حتى أن السلطان أسكيا الحاج موسى كان يحرص بعد كل صلاة على الملاقاة به للتسليم عليه والتبرك به (14)، وحضي العالم عبد الله البلبالي بمكانة علمية مرموقة وهو خطيب ومدرس الجامع الكبير بتمبكتو، قال عنه صاحب كتاب "الفتح الشكور"

---

7 عبد العزيز الفشتالي: مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا ، تحقيق عبد الكريم كريم ، مطبوعات وزارة الأوقاف ، المغرب, 1972 ، ص 74

8 انظر عبد الله عباس : الدور الحضاري لاقليم توات وتاثيراته في بلاد الودان الغربي,رسالة ماجستير , قسم التاريخ ,جامعة الجزائر , 2003، ص 76

9 انظر على سبيل المثال ، الحفناوي أبو القاسم : تعريف الخلف برجال السلف ،مطبعة الثعالبي الجزائر، 1906

10 بوعزيز يحي : تاريخ إفريقيا الغربية الإسلامية، دار هومة، الجزائر، 2001، ص 195

11 أحمد محمد كاني : الجهاد الإسلامي في غرب إفريقيا ، مطبعة الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، 1987، ص 21

12 المرجع نفسه، ص 22.

13 أحمد حسن محمود : الإسلام والثقافة العربية في إفريقيا، ط 1، دار المعارف، مصر (د ت)، ص 121

14 السعدي عبد الرحمان : تاريخ السودان ، مكتبة هوداس ، باريس ، 1964 ، ص 236 .

كان رحمه الله تعالى من عباد الله الصالحين زاهدا ورعا لا يأكل إلا من عمل يديه, وظهرت له كرامات وبركات، وهو من أهل القرن التاسع عشر الهجري ومن علماء توات وأوليائها (15)

وذكر صاحب كتاب "الفتح الشكور" أسماء أكثر من أربعين شخصية تواتية من أهل الصلاح والولاية والفقه كان له تأثير بارز في بلاد التكرور. ومنهم العالم سيدي مولاي زيدان أحد أحفاد مولاي عبد الله الرقاني الذي أوصل إلى بلاد التكرور أوراد الطريقة القادرية، والعالم الحاج أحمد بن الحاج الأمين الملقب بالتواتي الغلاوي، والذي كان يشرف على ركب حجيج بلاد التكرور(16)، وذكر القاضي محمود كعت أن مدارس الغرب الإفريقي ومساجده كانت تعج بالعلماء التواتيين، ويؤكد السعدي أن علماء توات كانوا يمثلون نسبة هامة من مشاهير علماء مدارس ومساجد السودان الغربي.(17)، وقد اشتهروا بتدريس علوم الدين واللغة، وشهد علماء السودان بنبوغهم وريادتهم في مختلف العلوم، وخلفوا في تلك البلاد تلاميذ ينشرون فكرهم, وكثير من المخطوطات المتواجدة حاليا في خزائن ومكتبات مالي والنيجر وغانا ونيجيريا وموريطانيا، إذ تشير بعض الدراسات إلى الإحصائيات الأولية الآتية :

- مكتبة احمد بابا التنبكتي بمالي - 127 مخطوط
- مكتبة ماما حيدة بمالي - 84 مخطوط
- مكتبات غانا - 31 مخطوط
- مكتبتي شنقيط وودان بموريطانيا - 8 مخطوطات
- مكتبتي كادونا وابادان بنيجيريا - 6 مخطوطات (18)

وهكذا يتبين لنا أن علماء توات أدوا دورهم في نشر الدين الإسلامي والثقافة العربية، وتبوؤوا مكانة مهمة بين أقرانهم، وان جهودهم ساهمت مع التجار والدعاة في بعث النشاط الحضاري والتأثير على ممالك غرب إفريقيا .

ثالثا - دور علماء توات في نشر الإسلام والثقافة العربية في السودان الغربي

ساهم كل من الفقيه والتاجر التواتي في مد مناطق السودان الغربي بالأفكار والتعاليم الإسلامية كل حسب طريقته الخاصة، فالفقيه عمل عن طريق التدريس والإرشاد، والتاجر اجتهد عن طريق المجالس واللقاءات في الأسواق والمحافل العامة في بث تعاليم طريقته الصوفية التي اعتنق مبادئها([19])، وساهم موقع توات الاستراتيجي كوسيط بين المغرب الشمالي والسودان الصحراوي في جعل هذه المنطقة مرتكزا ومنطلقا في نشر الإسلام والثقافة العربية في إقليم السودان الغربي.

وقد مهد علماء توات لنشر الإسلام في هذه المناطق النائية سواء من خلال تعليمهم للطلبة السودانيين أو انتقالهم إلى مناطق السودان، مثلما فعل الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني الذي استقر مدة في شمال نيجيريا مدرسا وداعيا، وزار بلاد الحوصا وكانو، وبفضل سياسته في الإصلاح والدعوة والتقرب من السلاطين استطاع أن ينشر الإسلام بين المناطق الوثنية وان يوطد دعوته، وكان لجهوده دور بارز في إرساء علاقات وطيدة مع السودان الغربي([20]) .

ولان الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي نهض بدور هام في نشر الإسلام فان جهوده تحتاج منا إلى وقفة، فهو احد علماء القرن الخامس عشر الميلادي المرموقين، اشتهر بعلمه الواسع، ومواقفه السياسية الصارمة، ونشاطه الإصلاحي المجدد، ولد بتلمسان عام 1427 م على الأرجح، وبها نشأ ودرس ونبغ في العلوم الشرعية واللغوية، وفي عام 1452 اضطر لترك تلمسان واللجوء إلى توات هروبا من

---

15 ابن عبد الله الطالب محمد البرتلي : الفتح الشكور في معرفة علماء التكرور، تحقيق الكتاني ومحمد حجي ، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1981، ص 37 وما بعدها

16 ابن عبد الله محمد البرتلي : المصدر نفسه، ص 97

17 السعدي عبد الرحمان :المصدر السابق، ص237

18 انظر احمد جعفري: واقع المخطوطات بأقاليم توات الكبرى، مجلة النخلة مديرية الثقافة، ادرار، عدد تجريبي، جويلية 2005، ص 26

19 أنظر فرج محمود فرج: الدور الحضاري للإقليم التواتي، مداخلة في ملتقى الدراسات الإسلامية والعربية في القارة الإفريقية ، أدرار، جانفي 1988، نشر مركز الدراسات والأبحاث التاريخية لولاية أدرار. (دراسة مرقومة)

20 Martin (A .G. P) :les oasis sahariennes , op.cit , p 51

مفاسدها ورغبة منه في نشر العلم والدعوة في سبيل الله، وهناك جلس للتدريس وبنى زاويته القادرية، وذاع صيته في كامل الصحراء وبلاد السودان، وحارب اليهود الذين استبدوا واستكبروا في توات، ورأى بعدها أن ينتقل إلى السودان لنشر الإسلام والقضاء على البدع والوثنية، وقضى وقتا طويلا هناك في الدعوة والإصلاح, وخلف هناك تلامذة وأتباعا اقتفوا منهجه واقتبلوا فكره، وهكذا أصبح له حضور قوي في أقطار السودان الغربي يدل على المكانة التي حازها علماء توات والجزائر في تلك البقاع ([21]).

وقضى الشيخ المغيلي أزيد من عشرين سنة في الدعوة إلى الإسلام ونشر أحكامه وأفكاره بين شعوب السودان الغربي، وكانت مساهمته كبيرة في نشر تعاليم الإسلام، وإدخال شعوب وقبائل عديدة في الإسلام، والأخذ بيد الحكام، ويعترف رواد الإصلاح الأفارقة في العصر الحديث بمرجعية المغيلي في مختلف أحكامهم الدينية والسياسية، مما يؤكد على الدور الهام للشيخ المغيلي، فهو يعد مصلحا دينيا وسياسيا واجتماعيا، ساهم في نشر أفكاره الاجتهادية في مرحلة حاسمة من انتشار الإسلام في السودان الغربي وقد أهلته شخصيته بأبعادها المختلفة للقيام بهذا الدور الريادي، حيث ركز مهمته الإصلاحية في السودان على التدريس والإمامة ونصح الحكام ([22])، فقد تفرغ سنوات للتدريس بمسجد الكرامة الذي شيده باكدز، وهنالك اشتهر ووفد عليه الطلاب من أقطار السودان الغربي، وانتقل بعدها للتدريس في مناطق أخرى، وقدم من قبل الأمراء والحكام لإمامة المسلمين، وذلك تقديرا لشخصه واعترافا بنبوغه وأهليته، وعليه فان المغيلي بدا مهمته في السودان مدرسا وأصبح إماما ومرشدا للحكام، وهذا هو السبيل الناجع للدعاة الخبيرين.

وقد اظهر المغيلي اهتمامه بالدعوة والإرشاد بين سكان توات وبذل جهودا في تنقية الإسلام مما علق به، وتطهير العقيدة، وكان الهدف الأساسي من انتقاله إلى السودان هو نشر الدعوة الإسلامية، وقد دعى الحكام صراحة أن ينهضوا لمحاربة البدع والخرافات إلى عدم الاحتكام إلى العادات المنافية للإسلام، وفضلا عن تنقل المغيلي في السودان من اجل الدعوة، فقد تجند لدعوة الوثنيين لدخول الإسلام، وتضمنت رسائله ووصاياه للأمراء والسلاطين دعوة صريحة لإصلاح أوضاع المجتمع وطبعه بالطابع الإسلامي، إذ أوصى سلطان كانو قائلا: " وامنع جميع أهل بلدك عن جميع أنواع الشرك وكشف العورات..."([23])

وساهمت قدرات ومؤهلات المغيلي في القيام بدور إصلاحي بارز في توات والسودان الغربي، وسهلت له تجربته الزاخرة في توات في التعرف على طبيعة المجتمعات الصحراوية ومسالك انسياب الإسلام إليها، وقد اختار بعد نجاحه في القضاء على مكائد اليهود، مواصلة نهجه الإصلاحي في السودان الغربي، فقرر الرحيل إلى هذه البلاد البعيدة والمكوث سنوات هناك بقصد الدعوة والإرشاد، وعد ذلك واجبا دينيا وقربة من قرب الله .

بعد رحلة طويلة نزل المغيلي أولا في مدينة تيكدة من بلاد نيجيريا، واستقر بها للتدريس والوعظ والإرشاد، واشتهر فيها كعالم ومصلح ومقاوم للبدع والخرافات، وانتقل بعدها إلى كانو، ثم إلى كاتسنا حيث استقر هناك مدرسا وإماما، وتقرب من أميرها ابن عبد الله محمد بن يعقوب الذي طلب منه أن يكتب له كتابا في أحكام ردع الحكام الناس عن الحرام، فكتب له رسالة شرح فيها كيف يمكن للأمير أن يحكم بلاده، ورعيته وفق الشريعة الإسلامية وأن تحارب العادات الوثنية ويصلح المجتمع وينشر العدل .([24])

وبعد سنوات من التدريس والدعوة انتقل المغيلي إلى بلاد التكرور في شمال السنغال غرب بلاد غانة القديمة، وبذل جهودا جبارة في نشر الإسلام ودعوة الوثنيين لدين الله، ومنها انتقل إلى مدينة قاو

---

[21] للتعرف على حياة الشيخ المغيلي وجهوده الإصلاحية انظر، مقلاتي عبد الله :موقف الشيخ المغيلي من يهود توات، مجلة الحقيقة ,تصدرها جامعة ادرار ، العدد 6 ماي 2005، ص ـ ص، 253-266

[22] انظر مقدم مبروك مقدم : الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي ،ط 1 ، مؤسسة الجزائر كتاب ، تلمسان ، 2002 ، ص 93، 94

[23] انظر محمد ابن عبد الكريم المغيلي : مصباح الأرواح، تحقيق رابح بونار ،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ،1968، ص ـ ص، 74- 75

[24] انظر محمد بن عبد الكريم المغيلي : رسالة في الإمارة ، مخطوط ، ورقة 2

عاصمة مملكة سنغاي، والتقى بأميرها الاسقيا محمد الكبير(1528-1493) الذي اعتمده مستشارا له، وأعانه في نشر الإسلام وتعليم مبادئه في بلاد "الكبي" الوثنية ([25])

وقد تعرف المغيلي على الأحوال السياسية والاجتماعية والاقتصادية لسكان السودان الغربي، وتقرب من الأمراء من اجل تفعيل دعوته ونشرها على نطاق أوسع، وساهم في إصلاح المفاسد والانحرافات، ومحاربة البدع والخرافات، ونشر التعاليم الصحيحة للدين الإسلامي على مذهب أهل السنة والجماعة، وبذلك عمت أفكاره الإصلاحية السياسية منها والدينية والاجتماعية، وخلف ورائه تلاميذ ومدارس تسير على نهجه وتتبع مذهبه، وانه من الأهمية بمكان التعرف على الأبعاد الإصلاحية لفكر الشيخ المغيلي في ميدان الفقه والعقائد، حيث يبدو المجال خصبا والإسهام بارزا ومؤثرا.

وأسهم المغيلي في نشر المذهب المالكي في السودان الغربي ومده خاصة إلى المناطق التي افتتحها بدعوته لأول مرة، ومنها بلاد الكبي وغانة، وأحكامه الفقهية والسياسية الداعية للجهاد عرفت انتشارا واسعا وتبناها زعماء الإصلاح في السودان الغربي الحديث أمثال ابن فودي عثمان

ويتأكد لنا على ضوء تتبعنا لجهود الشيخ المغيلي الإصلاحية وامتدادات أحكامه الفقهية والعقدية، أن المغيلي يعد بحق واحدا من رواد الإصلاح والمجددين وانه سخر جهدا كبيرا في سبيل الدعوة إلى الله في أقطار السودان الغربي، ومثلت أفكاره الفقهية المالكية واجتهاداته، وأفكاره العقدية، مجالا خصبا اغترف منه طلبة وعلماء السودان، وكانت لها تأثيراتها الواضحة في مختلف مجالات حياة السودانيين الشرعية والاجتماعية والسياسية.

ومنذ القرن الخامس عشر الميلادي أصبح إقليم توات مركزا أماميا لنشر الإسلام في المناطق الصحراوية للسودان الغربي، وبعده تواصلت هجرة التواتيين واستقروا أفرادا وجماعات في الحواضر الإفريقية،إذ استقر التجار والعلماء في تمبكتو، وأصبحت الجالية التواتية بها من أكبر وأنشط الجاليات، وانتشر الإسلام كذالك بفضل نشاط الطرق الصوفية وامتدادها بين أوساط السكان في إفريقيا الغربية ([26]).

وبحكم تزايد الهجرات وتنقل العلماء ورجال الطرق الصوفية إلى هذه الأصقاع أزداد صيت علماء المنطقة ذيوعا، ودور التواتيين مكانة ورفعة، فمنذ تأسست مدينة تمبكتو أمها علماء وفقهاء توات ومنهم الفقيه أبو الأنوار بن عبد الكريم التنلاني الذي استقر فترة يعمل في الإفتاء والتدريس والشيخ الحسن بن سعيد البكري والشيخ محمد بن أحمد الذي أمضى حياته يعمل مفتيا ومدرسا ببلدة زوات شمال تمبكتو([27]).

وخلال القرن السابع عشر نقل علماء توات الطريقة القادرية إلى السودان، ويرجع الفضل في ذلك إلى الجماعة الكنتية، حيث استقروا في الأزواد شمال مالي وأنشئوا فرعا لزاويتهم، وكان من أشهرهم الشيخ سيدي المختار الكبير شيخ قبيلة كنتة، وابناه سيدي سيدي محمد وسيدي احمد، وقد زاولوا في تمبكتو التعليم والتجارة ونشروا الطريقة، وأصبحت لهم مكانة معتبرة في السودان([28])، وبفضل جهود عثمان دان فوديو في العصر الحديث ترسخت الطريقة القادرية في غرب افريقيا, كما نقل بعض علماء توات الطريقة التجانية التي ذاع انتشارها في السودان كذالك، وقد تأسست الطريقة في عين ماضي بالأغواط، وانتشرت في الصحراء وتوات، ثم امتد نفوذها إلى المغرب الأقصى والى السودان الغربي حيث لقيت الرواج الواسع وما زالت إلى اليوم، وتذكر بعض المصادر أن مؤسس الطريقة احمد التجاني كانت له علاقة وطيدة مع عالم قورارة سيدي محمد بن الفضيل، وأن كل منهما اخذ الطريقة عن الأخر

---

[25] انظر يحي بوعزيز : تاريخ إفريقيا الغربية الإسلامية من مطلع القرن السادس عشر إلى مطلع القرن العشرين، مرجع سابق، ص ـ ص 80 - 81

[26] حاج أحمد الصديق : التاريخ الثقافي لإقليم توات ، مرجع سابق ، ص 95

[27] أنظر الشيخ محمد باي بلعالم : قبيلة فلان في الماضي والحاضر، مطبعة دار هومة، الجزائر،(د ت) ص 103 وما بعدها .

[28] انظر مداخلة زبادية عبد القادر في أعمال المهرجان الثقافي الأول للتعريف بتاريخ منطقة ادرار، ادرار، ماي 1985 ، ط1، م و ف م، الجزائر ،1988، ص 79، وكذا مركز الشيخ سيدي المختار الكبير الكنتي للبحث والتوثيق : نشرية بعنوان :" نبذة تاريخية موجزة عن القادرية الكنتية في منطقة حوض النيجر وما جاورها "، ص 4

([29])، ولم يقتصر دور التيجانية على الجانب الديني والاجتماعي بل تعداهما إلى الجانب السياسي، إذ ظهرت العديد من الدويلات التي استندت إلى دعوتها مثل دولة الحاج عمر (1798- 1865) ودولة الشيخو احمدو. وأسهمت هاتين الطريقتين وغيرهما في نشر الإسلام والثقافة العربية على نطاق اوسع .

رابعا: الهجرة ودور القبائل التواتية فى توطيد العلاقات الجزائرية ـ الإفريقية.

تميز علماء توات بالنبوغ في العلم وخفة الحركة ومخالطتهم للسكان الأفارقة، وقد اختار الكثير منهم طريق الدعوة للإسلام إلى جانب التجارة، وهذا ما أسهم في نشر الإسلام ودخول الأفارقة للإسلام بطريقة سلمية، ومنذ فتح المغيلي طريق إفريقيا أمام الدعاة تعود علماء توات على زيارة الأقاليم السودانية، والمكوث بها لتدريس العلم وإمامة المسلمين ونشر الإسلام، وتحفل كتب التراجم بذكر الكثير من أولائك الذين اشتهروا في مجال التعليم بتمبكتو، وأولئك الدعاة المجاهدين في أدغال إفريقيا نشرا للرسالة الإسلامية، ولم يكن المغيلي وحده من حضي بالتكريم والإشادة، فقد رحب ملك برنو" كداي " بالشيخ محمد الطاهر الفلاني وولاه خطة السلطان([30])، ويذكر عبد الرحمان السعدي أن كثيرا من علماء توات استقروا في تمبكتو ومنهم الشيخ أبا القاسم التواتي الذي كان محل احترام وتقدير الجميع حتى أن السلطان اسكيا الحاج موسى كان يحرص بعد كل صلاة على الالتقاء به للتسليم عليه والتبرك به ([31])، وهكذا كان لعلماء توات دور متميز في نقل الإشعاع العلمي والحضارة الإسلامية إلى القارة السمراء، وبفضل جهودهم توسع امتداد الإسلام إلى إفريقيا، وتغلغلت الثقافة واللغة العربية بين الأفارقة، وقد لعبت القبائل التواتية بهجراتها الجماعية دورا فاعلا في تعميق أواصر الإخوة والروابط، وقدر لبعض القبائل أن ترسخ نفوذا دينيا وسياسيا، وان تنشأ زوايا وحركات دينية وممالك في غرب إفريقيا، وهذا ما جعل إسهامها ودورها مضاعفا في تبليغ رسالة الإسلام وثقافته وحضارته. وهذا ما نوضحه من خلال استعراض نموذجين كان لهما قصب السبق والدور الفاعل في حمل هذه الرسالة

1 ـ دور كنتة في نشر الإسلام في السودان الغربي

نزحت من توات العديد من القبائل باتجاه جنوب إفريقيا وساهمت في نشر الإسلام والثقافة العربية، ولعل من أشهر هذه القبائل قبيلة كنتة التي سنعرف بأصولها ودورها في نشر الطريقة القادرية والثقافة العربية، وفي ربط أواصر العلاقة بين توات وافريقية.

1-1- انتقال الكنتيين إلى السودان الغربي

كان لهذه القبيلة دور بارز في نشر الإسلام بإفريقيا، وهي تنتسب إلى الصحابي الجليل عقبة ابن نافع الفهري وهي من سلالة عبد الله الزاهد المتوفي بمستغانم، رحل حفيده عثمان إلى توات واستقر بقرية عزي ([32])، إلى أن توفي وخلفه ابنه يحي الذي كان مدرسا وعالما مصلحا, وانتقل ابنه الوحيد علي إلى وادي نون وتزوج من امرأة جكنية هي اهوا بنت زعيم قبيلة ابدوكال محمد العالم بن كنتة بن زم وعرف أحفاده بالعلم والصلاح ارتحلوا إلى الساقية الحمراء واستقر بعضهم بفصك ,هناك ولد احمد الكنتي ونبغ في العلوم ورحل لنشر علوم الشريعة واللغة في بلاد السنغال, عاش في القرن الخامس عشر الميلادي وخلف ثلاثة أبناء ترجع إليهم أصول القبيلة الكنتية وهم : أبوبكر الحاج، ومحمد الكنتي الصغير وعمر الشيخ، واعتبر البعض أن محمد البكاي أب جميع الكنتيين، وقد استقر بولاتة ومات ودفن بها، وتأكيدا على شهرته ومكانته ذكر صاحب كتاب فتح الشكور أن مزاره مقصد للقوافل القادمة من بلاد الشمال عموما([33]).

اشتهر الكنتيون بظاهرة الترحال فانتقل الكثير من علمائهم إلى بلاد التكرور، وأدت ظاهرة الحل والترحال بين توات والتكرور إلى استقرار الآباء وعودة الأحفاد، فبينما استقر احمد الكنتي عاد حفيده المختار الكنتي للاستقرار بزاوية كنتة، وحينما استقر محمد أبي نعامة بتوات عاد حفيده أبا محمد

---

[29] احمد الازمي: الطريقة التجانية في المغرب والسودان الغربي خلال القرن التاسع عشر الميلادي، ط1 ، مطبعة فضالة ،المحمدية ،2000، ج1، ص 71

[30] انظر عبد الله عباس : المرجع السابق، ص 87 وما بعدها

[31] انظر عبد الرحمان السعدي : المصدر السابق، ص 222

[32] تبعد عن مدينة ادرار ب 25 كلم

[33] انظر، أبوعبد الله الطالب البرتلي: فتح الشكور في أخبار علماء التكرور، مصدر سابق، ص30

بونعامة إلى السينغال. وقد كان الشيخ سيدي المختار الكنتي(1730- 1811) مصلحا كبيرا وفاتحا إسلاميا حقيقيا، اجتذبت زاويته القادرية خلقا من الأتباع والمريدين الذين انتشروا في إفريقيا، وأصبح له نفوذ سياسي بارز في الصحراء والسودان الغربي، وقد قال عنه المستشرق الفرنسي "بول مارتي ": "كان ...السيد الذي وطد، وأنار للمشايخ طريق إيمانهم، والزعيم الديني الذي ادخل في الإسلام الأقوام الوثنية، وبالإضافة إلى مكانته عند القبائل الصحراوية، فان ذكراه كانت أكثر من غيره حيوية، وبقاء في السنغال، وغينيا وساحل العاج الشمالي، بل في كل السودان المسلم ..." ([34])

ويمكننا أن نحصر محطات انتقال الكنتيين في المحاور الآتية :

1 ـ عزي. وهي المحطة الأولى والموطن الأول للكنتيين بتوات، حيث عاش بها ثلاثة أجداد وبها دفنو.

2 ـ ولاتة، وهي المحطة التي انتقل منها احمد البكاي وأبنائه الذين اتخذوا من بلاد التكرور منطلقا لنشر الإسلام، ودون أن تنقطع صلتهم بتوات، إذ عاد عمر الشيخ البكاي رفقة أستاذه محمد بن عبد الكريم المغيلي إلى توات .

3 ـ زاوية كنتة، أول من استقر بها احمد بن محمد الرقاد العائد من أرض التكرور ومن هذه الزاوية خرج احمد بن علي الرقاد ي إلى بلاد التكرور وأسهم في نشر الإسلام

4 ـ أقبلي، أسس زاويتها محمد أبو نعامة بن عبد الرحمان القادم من الأزواد، وكانت منطلقا لرحلات عديدة إلى الينغال، وساهم أحفاد محمد أبي نعامة في نشر الطريقة القادرية والتعليم العربي والعلوم الشرعية، ومن أحفاده محمد بو كنتة مقدم الطريقة القادرية.

5 ـ الجديد، وهي المحطة الرابعة لكنتة، أسسها المختار الشيخ بن محمد، وقد توزع أبنائه بين توات وبلاد التكرور([35]).

وقد مثلت المحطتين الأخيرتين رابطا أساسيا بين توات والسودان الغربي، واقتصر الأمر على طريق توات ـ انزيزا لتوفر سلسلة من الآبار عبره.

1 ـ 2 ـ دور قبيلة كنتة في نشر الإسلام

في عهد المرابطين انتشر الإسلام في أهم المدن التكرورية، وتركت مهمة الدعوة الإسلامية بعد انتقال المرابطين إلى الشمال للقبائل المسلمة والأفراد، ولعبت في ذلك قبيلة كنتة الدور الكبر، إذ يؤكد في هذا الإطار الباحث مصطفى أبو ضيف:" كانت هناك قبيلة عربية واحدة كان لها اثر عظيم في إسلام الزنوج في منطقة جنوب الصحراء ومنطقة النيجر الوسطى وتلك هي قبيلة كنتا التي هاجرت في القرن التاسع الهجري من مواطنها بتوات إلى أطراف تمبكتو "([36])

اتبع الكنتيون الطريقة القادرية، خاصة في عهد محمد بن علي الكنتي الذي اخذ ورده عن أبي العباس السبتي، وتترسخ الطريقة أكثر على عهد ابنه احمد البكاي دفين ولاتة, والذي يعد حاملها الأول إلى السودان الغربي، واثبت ذلك الدكتور عامر صحب بالقول : " إن سيدي احمد البكاي الكنتي هو الذي أدخل القادرية إلى السينغال في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي "، وفي حين سجل المغيلي دوره في نشر الطريقة في وسط إفريقيا الغربية فان لسيد احمد البكاي الفضل في نشرها في القسم الغربي من السودان ([37]).

وفي السنيغال لا تزال إلى اليوم تتواجد الطريقة البكائية, والزعامة فيها للكنتية، وكان للقادرية دور متميز في نشر الدعوة الإسلامية عن طريق التعليم وتلقين العلوم لأبناء المنطقة، ولهذا برز منهم علماء وخطباء وكتاب... وخلال القرن التاسع عشر كانت الجماعات القادرية تسيطر على الحيات الروحية

---

[34] مركز الشيخ سيدي المختار الكبير الكنتي للبحث والتوثيق: المصدر السابق ، ص3- 4

[35] انظر اسماعيلي عبد الله وآخرون : دور الكنتية في نشر الإسلام، مداخلة في ملتقى "الإسلام في افريقية"، جمعية الأبحاث والدراسات التاريخية، ادرار (1988)، دراسة مرقونة، ص06

[36] انظر مركز الشيخ سيدي المختار الكبير الكنتي للبحث والتوثيق :المصدر السابق ، ص3

[37] انظر، احمد شلبي: موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، ط11، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1999 ،ج3 ، ص212

والفكرية في نواحي افريقية، وكانت بحق طريقة مفيدة ومهمة في فهم الإسلام ونشره تجلى من خلالها دور كنتة في إفريقيا الغربية.

2 ـ قبيلة فلان التواتية ودورها في نشر الإسلام والثقافة العربية

إلى جانب كنتة أسهمت قبيلة الفلان بجهد معتبر في نشر الإسلام في غرب إفريقيا، وتجمع المصادر التاريخية على إرجاع نسب قبائل الفلان إلى عقبة ابن نافع، وقد قيل أن الفلان من ولد جعفر ابن أبي طالب، وقيل من أبناء أبي بكر الصديق([38])، وقد استوطنت قبيلة فلان بلاد شنقيط، وانتقلت بعض فروعها جنوبا إلى بلاد مالي والتكرور والسنيغال، واستوطنت هناك وأنشئت العديد من القرى والمدن([39])، ويمثل الفلان اليوم اكبر تجمع سكاني في غرب إفريقي، وقد عرفوا في التاريخ بلقب الشعب الدعاة للإسلام، إذ حملوا الإسلام من موطنهم بالسواحل الأطلسية إلى داخل العمق الصحراوي حتى وصلوا بحيرة تشاد، وهم اليوم منتشرون في ثمانية عشرة بلدا، وتتركز تجمعاتهم الكبرى في نيجيريا والسنغال وغينيا ومالي والكاميرون والنيجر والسودان، ويرثون تقاليد أجدادهم الحضارية، أولئك الذين نشروا الإسلام وأقاموا دولة الفلان وواجهوا القوى المسيحية الاستعمارية، وللتعرف أكثر على إنجازات الفلان يتوجب الوقوف على دورهم الحضاري في إفريقيا قبل مرحلة تأسيسهم للدولة الإسلامية في أوائل القرن التاسع عشر الميلادي.

2 -1- جهاد الفلان وبعث الدولة الإسلامية

قامت حركة الجهاد الإسلامي في إفريقيا الغربية بدور رئيسي في توحيد الكيانات المفتتة والصمود في وجه الإحتلالات الأوربية، وهدفت إلى إعادة مجد الإسلام وإقامة دولة إسلامية على أسس الشريعة، قادها الشيخ عثمان ابن فوديو انطلاقا من نيجيريا الشمالية وكان لانتشارها انعكاسات كبرى على رسوخ الإسلام في إفريقيا ([40]) .

بدأ عثمان ابن فوديو دعوته مبكرا في أوساط الجماهير الغفيرة، وتنقل في مناطق عديدة في النيجر إلى أن استقر به الحال في شمالها حيث تحالف مع باوا سلطان جوبير، وانتزع منه امتياز حرية نشر الدعوة الإسلامية، وبدا نفوذه يتقوى وكثر أتباعه، فدعاهم إلى فكرة الجهاد وإنشاء الخلافة الإسلامية, وبدا جهاده ضد سلاطين جوبير الذين كفروا بتحليهم عن بعض مبادئ الإسلام ([41]).

وهكذا انتشرت دعوته وكثر أتباعه من العلماء والدعاة، واستعد لمواجهة الأعداء بالقوة وبناء صرح الدولة الإسلامية القوية، وقد امتد نفوذ دولته على طول الشمال النيجيري، وتناقل الناس أخبار انتصارات الفلانيون إلى تامنراست وعين صالح وتوات، وقد كان ذلك في بداية القرن التاسع عشر الميلادي وتزامنا مع ظهور حركات الإصلاح التي كان يعرفها المشرق الإسلامي.

وقد ارتبط الفلانيون مؤسسو الدولة بصلات وطيدة مع علماء صحراء الجزائر، فهذا عبد الله ابن فوديو أخ عثمان ووزيره يشهد في كتاباته انه اخذ العلم وتأثر في أفكاره السياسية بالشيخ المغيلي وكذا بالمختار الكنتي الذي امتدحه قائلا :

بلغ شريف أصل كاسمه اعني لشيخ كاسمه المختار
أزكى سلام شيب مبسكا تمسه ريح التبسم تهب في الأسحار.

---

[38] انظر: الشيخ محمد باي بلعالم : قبيلة فلان في الماضي والحاضر، مرجع سابق ، ص- ص، 5-9.

[39] ادم عبد الله الالوري : الإسلام في نيجيريا ، ط 3 ، (د ن)، القاهرة، 1978، ص 92.

[40] إبراهيم احمد دياب : لمحات من التاريخ الإفريقي الحديث، دار المريخ، المملكة العربية السعودية، 1401ه ، ص 201 وما بعدها .

[41] محمد بللو: إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور، مصدر سابق، ص 123

وقد كان للوزير تأثير بالغ على سياسة الدولة الفلانية، وخلف لنا تراثا سياسيا شمل مختلف شؤون الإمارة والحكم، ومن أهم مؤلفاته " ضياء الحكام فيما لهم من الأحكام "، وقد اشتهر الحكام الفلانيون بالثقافة والتبحر في العلم، مثلما هو الحال بالنسبة لعثمان ابن فوديو وابنه احمد بللو([42])

ساد حكم الفلان في بلاد الهوسا منذ عام 1811، وأقاموا مراكز عديدة في طول البلاد وعرضها، انطلقوا منها لشن الهجمات ضد القبائل الوثنية، وهكذا أخضعت لهم مناطق واسعة من إفريقيا الوسطى، وعندما تحققت الأهداف المرصودة وجه عثمان ابن فوديو عنايته لتنظيم شؤون الدولة، وقد قسم إدارة بلاده إلى قسمين: قسم يشرف عليه شقيقه عبد الله، وآخر يشرف عليه ابنه محمد بللو، وعاشت إمبراطوريتهم ما يناهز المائة عام حتى مقدم الاستعمار وقضائه على تلك الإمبراطورية بعد صراع مرير خاضه الفلانيون ضد الاستعمار([43]).

وتعبر حركة الشيخ عثمان ابن فوديو حركة إصلاحية إسلامية انتهجت خيار الدعوة ثم رفعت راية الجهاد، وبذلك مكنت لنفسها بإنشاء إمبراطورية واسعة في السودان الغربي وأعالي السينغال وبلاد الهوسا منذ القرن التاسع عشر الميلادي، وقد أشاد كثير من الباحثين بأهمية هذه الحركة الإصلاحية السلفية، وبالدور الجهادي والدعوى الذي بثته تحت غطاء القادرية، وقد لاحظنا أن الباحثين العرب المشارقة يغفلون تلك الصلات التي تربط إمبراطوريتهم بالمغرب الإسلامي، والمؤكد أن مؤسسوا الدولة الفلانية ارتبطوا بعلاقات وطيدة مع علماء الصحراء الجزائرية ومع الكنتيين خصوصا، كما أن هنالك فروعا من قبائل الفلان استوطنت إقليم توات وربطت صلاتها مع هذه الدولة، وسوف نؤكد على ذلك من خلال التعريف بالدور الذي لعبه العلماء الفلانيون في إقليم توات وأثره على إقليم السودان الغربي ودولة الفلان، فلقد تواصل الارتباط الذي يجمع فروع القبيلة الواحدة، كما أن مؤسسو دولة الفلان نهلوا من فكر الشيخ المغيلي الإصلاحي، وذلك بإقرار من الشيخ عثمان ابن فوديو وابنه محمد بللو ([44]).

2 -2 ـ علماء توات الفلانيون وإسهاماتهم في إفريقيا الغربية.

نبغ العديد من علماء فلان بمنطقة ساهل اقبلي وساهموا في نقل العلوم والمعارف إلى بلاد السودان، وتشيد كثير من الكتابات بجهود أولئك الذين اثروا في الحياة العلمية لبلاد السودان، سواء منهم الذين استقروا هناك أو الذين درسوا طلبة السودان بمنطقة اقبلي، ومنهم :

أ ـ الشيخ محمد الحسن بن محمد بن الحاج احمد الفلاني:

ولد سنة 1283 هـ ببلدة ساهل باقبلي، من أسرة مشهورة بالعلم والتقوى اخذ العلم عن عمه العلامة الشهير حمزة بن الحاج احمد والشيخ المختار بن سيد احمد بلعالم، ونبغ في الفقه والنحو والحديث، وفضلا عن جلوسه للتدريس ببلدته زار العديد من المناطق الصحراوية، وقضى فترة في مالي يدرس ويجتمع بعلمائها، وأرسى علاقات وطيدة مع علماء السودان ونذكر منهم الشيخ الكنتي ([45]).

ب ـ عبد الرحمن السكوتي :

العلامة محمد عبد الرحمن السكوتي الملا يخافي ولد بقرية ساهل سنة 1285 هـ ودرس على مشايخ القرية واستفاد من مجالس الشيوخ حتى برع في علوم الشريعة واللغة، ألف أرجوزة في علم الفرائض وكتاب في علم المنطق، وله مجموعة هامة من القصائد منها ما هو مدح لأهل إنغر اثر انتصارهم على الفرنسيين.

وقد ارتبط العلامة بعلاقات صداقة مع علماء واعيان أزواد، وأشاد في قصيدة له بفضل قبيلة أبي جبيهة الازوادية، وجدد خلالها العهد واستعطفهم طالبا الدعاء، وهي قصيدة طويلة في عشر صفحات, وقد عرف المترجم له بدعوته الإصلاحية في ورقلة وعين صالح وفي السودان، إذ شن حملة ضد

---

[42] نذكر من مؤلفاته في هذا الباب ما يلي : 1- إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور ، 2- التحرير في قواعد التبصير للسياسات ، 3- تنبيه الصاحب على أحكام المكاسب. 4- مفتاح السداد ... الخ
انظر ، ادم عبد الله الالوري : الإسلام في نيجيريا، مرجع سابق، ص134

[43] عبد الرحمن زكي: إمبراطورية الفولة : قبيلة فلان من خلال مؤلفات مقالات الباحثين وكتابات المؤرخين ، منشورات جامعة أم درمال السودان، ص 271-278

[44] انظر بتفصيل، محاضرات المهرجان الثقافي الاول حول تاريخ توات، المرجع السابق، ص 56

[45] انظر محمد باي بلعالم : المرجع السابق، ص33

الخرافات السائدة في هذه المناطق وظل على عهده داعية مجددا رغم ما لاقاه من أعراض ومصادمة إلى أن توفي رحمه الله عام 1911 ([46]).

ويكفينا الإشارة كذلك لجهود العلماء الذين أسهموا في نشر العلم والثقافة العربية انطلاقا من مركز ساهل اقبلي، وكلهم من أولاد بن مالك وأولاد بلعالم، وقد اقتصرنا على أولئك الذين ارتبطوا بعلاقات مع السودان الغربي، وبخاصة مع قبيلة الازواد بمالي، ودون ذكر أولئك الذين اشتهروا باقبلي وأولئك الذين انتقلوا إلى مناطق الصحراء الجزائرية المختلفة كورقلة والمنيعة وتامنراست، ونذكر منهم العالم محمد العالم ابن احمد بن السيد حمزة، وابن عمه محمد المختار بن محمد بن حمزة الذي توفي في خمسينيات القرن الرابع عشر الهجري، وأخوه محمد عبد الله الذي توفي في الستينات من القرن الرابع عشر هجري، وكلهم ارتبطوا بقبيلة الازواد بصلات وثيقة، ومن العلماء الفلانيون الذين انتقلوا من ساهل إلى إفريقيا الغربية نذكر العالم محمد ابن محمد ابن مالك، والذي اشتهر بنبوغه العلمي في تلك البلاد، وكذا محمد بن الحاج احمد الذي عين ببلدة اودان مفتيا ومدرسا([47]).

وهكذا يتضح لنا أن الفلانيون قاموا بدور بارز في نشر الإسلام في إفريقيا، وأنهم شادوا حضارة ودولة اعتمادا على أسلوب الدعوة والجهاد، واستطاعوا الصمود في وجه الغزاة الأوربيين، وان علماء قبيلة فلان التواتية لعبوا دورا مهما في ربط الصلات بافريقية ونشر العلوم والثقافة العربية انطلاقا من مركزهم بساهل واولف.

وعلى ضوء ما سبق نخلص للتأكيد أن العلماء التواتيين الذين نبغوا في مختلف العلوم وذاع صيتهم في الأفاق قاموا بدور بارز في نشر الإسلام والثقافة العربية، وقد كانوا يجوبون مناطق الغرب الإفريقي وينهضون بمهام التعليم والوعظ والإرشاد، ويتقربون من الحكام ويرشدون الساسة إلى ما فيه خير الدين والعباد، وقد وقفنا على جهود وإسهامات البعض منهم، وبخاصة الشيخ عبد الكريم المغيلي ورجال الزوايا ومقدميها الذين ضحوا من اجل تخليد هذا السجل الحافل من الفتوحات والانجازات.

---

[46] محمد باي بلعالم : المرجع السابق، ص، 42 - 48.

[47] المرجع نفسه، ص، 57

الخاتـــمة

بعد الدراسة المستفيضة لجوانب العلاقات الثقافية لتوات مع السودان الغربي نخلص إلى تسجيل النتائج الآتية:

ـ يعد إقليم توات بحق من أهم روافد انتقال الإسلام والثقافة العربية إلى أقطار السودان الغربي, وقد ظهرت أهميته خلال القرن الخامس عشر الميلادي وفي لحظة تاريخية حاسمة، وذلك بفضل مكانته التجارية الدولية وكذا حيوية علمائه وصبرهم وخبرتهم في أداء رسالتهم الحضارية.

ـ إن هجرة التواتيين بدوافعها المختلفة (تجارية، دينية، شخصية ...) أسهمت بدور فاعل في توطيد الصلات والعلائق بين العنصرين العربي والإفريقي، وهذا ما جعل مجال التأثير والتأثر واسعا، ذلك أن التواتيين حظوا بمكانة مميزة بين الأفارقة، كما كان السودانيون يجدون في توات كل الترحيب والعناية.

ـ إن جهود الرواد الأوائل من الفاتحين التواتيين كان لها الأثر البالغ في نشر الإسلام والثقافة العربية، وقد نهج الشيخ المغيلي خيار الدعوة السلمية في تطبيق الشريعة الإسلامية، والجهاد من اجل فتح البلاد الوثنية، ورأى أن يستعين في ذلك بالحكام لتحقيق الغاية والمصلحة الدينية، واستطاع أن يحقق نتائج باهرة، خاصة من خلال إسلام كثير من القبائل على يده، ورسوخ فكره ونهجه بين علماء السودان باعتبارهما معينا لا ينضب ومرشدا موجها لخير المسلمين ولصالحهم .

ـ إن انفتاح علماء توات على الأقاليم الإفريقية واستقرار بعض القبائل هناك كقبائل الفلان وكنتة وطد علاقات الإقليم الإفريقية، وصبغ عليها كثيرا من مظاهر الثراء الحضاري والتلاقح الثقافي، وقد استقر كثير من علماء توات في الحواضر السودانية ومنها تمبكتو وأعطوا لها مكانة أعظم شانا ,كما جاب الكثير منهم البلاد الإفريقية بهدف نشر الإسلام وتلقين تعاليمه وقيمه.